الشطار والعيارون

للأستاذ شكرى محمود أحمد

فى المجتمع العباسى طبقات غريبة ظهرت فى فترات مختلفة من الزمن ، نشأت وتجمعت بسبب عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، ولكل طبقة منها اسم خاص بها ، ولها تنظيمات وعادات تنفرد كل طبقة بها دون غيرها . وربما كان لبعضها لغة خاصة . فمن هذه الطبقات الشطار(١) والعيارون(٢) والطرارون(٣) والظرفاء والفتيان(٤) واللعابون(٥) والمخنثون(٦) والحرافيش والساسانيون والزواقيل ، وغيرهم وقد ذكر الجاحظ منهم طبقات كثيرة .

وكانت هذه الجماعات أخلاطاً من مولدى العرب والفرس والترك والروم والبربر والديلم والنبط والجركس والأكراد والكرج وغيرهم من الأقوام الذين زخر بهم المجتمع العباسى . وقد تغلبت على هؤلاء اللغة العربية ، وكان للساسانيين لغة خاصة بهم ذكرها الثعالبى فى اليتيمة والخفاجى فى شفاء الغليل .

والذى يعنينا من هذه الطبقات هم الشطار والعيارون ، وقد سجل كثير من مؤرخى الإسلام أخبارهم وأعمالهم وما قاموا به من قطع الطرق ونهب الأموال وقتل الناس وغير ذلك ، ومن هؤلاء المؤرخين ابن الأثير والمسعودى والطبرى وأبو الفداء وابن الفوطى وابن الجوزى فى المنتظم وتلبيس إبليس والتنوخى فى الفرج بعد الشدة والأربلى فى خلاصة الذهب المسبوك والبيرونى فى الجواهر والبيهقى فى حكماء الإسلام وغير هؤلاء من المؤرخين .

وقد ظهر الشطار والعيارون فى مختلف الأمصار الإسلامية ، فهم يعرفون فى العراق باسم « الشطار » وفى خراسان يسمونهم « سرابدران » وفى المغرب يطلق عليهم اسم «العقورة» ، وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » .

كانت هذه الجماعات ترتزق باللصوصية والنهب وقطع الطرق والتحيل على الناس ، وفى الغالب باغتصاب الأموال وفرضها على المدن والمحلات أو الأغنياء . فقد ذكر ابن الأثير « أنهم قسطوا على الكرخ خاصة مائة ألف دينار »(١) ، أو أنهم كانوا يهاجمون بيوت الأغنياء ويأخذون ما فيها من المال والجواهر ، جاء فى المنتظم « .. وكبست دار تاجر فأخذ منها ما قيمته عشرة آلاف دينار »(٢) .

وفى كثير من الأحوال كان يستفحل أمرهم ويستشرى بلاؤهم حتى تعجز الحكومة عنهم ، وربما استعانت بهم فى الحروب كما حدث فى الفتنة بين الأمين والمأمون والمستعين والمعتز ، قال ابن الجوزى « كان طلاب السلطة يستعينون فى حروبهم ببعضهم على بعض ويمدون بالآلاف ، فقد كان مع أبى داف عشرون ألفاً منهم »(٣) . يستخدمهم لأغراضه ويسخرهم فى أعماله

سبب ظهورهم :

إن الاضطرابات السياسية التى مرت على العراق تركت أثرها فى الحياة الاقتصادية حيث كسدت الأعمال ، وغلت الأسعار وقلت الأقوات ، فاضطرب نظام الحياة ، وانتشرت المجاعة بين الناس ، وكان الحكام أنفسهم يخزنون الأقوات والحبوب ، لذلك تعمد العامة والسوقة إلى الارتزاق بمختلف الطرق وشتى الوسائل

(١) الشاطر : الذى أعيا الناس حيلة ومكراً .

(٢) العيار الذى لا هدف له فى الحياة ، وعندى أن العيار من عائر وهو المتردد ومنه سهم عائر الذى لا يعرف راميه ، وشاة عائرة مترددة بين الصفوف .

(٣) الطرارون الذين يطرون الدروب ويحتالون على الناس لأخذ ما عندهم ، ومنهم نساء ، وكان فى بغداد سجن الطرارات .

(٤) الفتيان من الفتوة ، جاء فى تعريفات الجرجانى : الفتوة فى اللغة السخاء والكرم وفى اصطلاح أهل المعرفة هى أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة .

(٥) اللعابون ويسمون أيضاً اللعابة وهم طائفة كانت تتخذ المجون والهزل والرقص حرفة لها . جاء فى شرح النهج لابن أبى الحديد ج ٢ ص ١١٧ « وقال عكرمة : ختن ابن عباس بنيه فأرسلنى فدعوت اللعابين ، فلعبوا فأعطاهم أربعة دراهم .

(٦) المخنثون : كان هؤلاء فى الحجاز قبل الإسلام ، وانتشر فعلهم بعد ذلك فى الأمصار ، كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال وكان أحسن الفنين منهم .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٢ ، ١٦٢ .

(٢) ابن الجوزى المنتظم ج ٨ ص ٧٢ .

(٣) ابن الجوزى تلبيس إبليس ص ٣٩٢ .

حتى انتظموا جماعات كثيرة لمناوأة أصحاب المال من التجار وغيرهم، فهم طبقات ضاقت بهم سبل الحياة، وسدت عليهم أبواب العيش، فتوسلوا بطرق الفوضى والاغتصاب للانتقام من مجتمعهم .

وفى كتاب الفرج بعد الشدة قصص كثيرة تصف هؤلاء الشطار والعيارين وكيف انتظموا فى هذه العصابات . ونقل لنا على لسان كردى من هؤلاء التقى به فى الطريق بين واسط والبصرة « . . قلت له : يا هذا كيف بلغت هذه الحال ؟ قال : نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح ، وجئت إلى بغداد أطلب السلطان فما قبلنى أحد ، فانتظمت إلى هؤلاء وطلبت الطريق ، فلو كان أنصفنى السلطان وأنزلنى بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتى وما فعلت هذا . . »(١) .

وقد كان هؤلاء الشطار والعيارون ينقمون على الدولة والسلطان أشد النقمة ، لأنهم أحرجوهم فأخرجوهم ، وتركوهم يقطعون الطرق ويسلبون الناس أموالهم ، ويصبون الفزع فى قلوبهم ، ففى قصة ابن حمدون اللص تظهر شدة نقمة هؤلاء على السلطان وقد ذكرها التنوخى ، قال هذا اللص : « . . يا هذا ! لعن الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا ، فإنه قد أسقط أرزاقنا فاحتجنا إلى هذا الفعل ، ولسنا فيما نفعل ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان . . أنت تعلم أن ابن شيراز فى بغداد يصادر أموال الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر فلا يخرج من حبسه وهو يهتدى إلى شىء غير الصدقة ، وكذلك يفعل البريدى فى واسط والبصرة والديلم ، ويتجاوز ذلك إلى الحرم والأولاد ... فاحسبونا مثل هؤلاء »(٢)

وربما هاجم هؤلاء الشطار والعيارون المحلات والقرى فنهبوا النساء والصبيان علانية وجعلوهم رهائن عندهم، ففى أخبار سنة إحدى ومائتين يذكر أبو الفداء « . . . وفيها اشتد أذى فساق بغداد وشطارها حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية ، ونهبوا القرى مكابرة ، وبقى الناس معهم فى بلاء عظيم . فتجمع أهل بعض المحال ببغداد مع رجل يقال له خالد بن الدريوس وشدوا على من يليهم من الفساق والشطار فنموهم وطردوهم »(٣)

ولقيت بغداد من هؤلاء الشطار والعيارين أشد أنواع العذاب والإرهاق ، وقد كانت تدافعهم بمختلف الطرق فما أغنى ذلك عنها شيئاً ، ففى سنة سبع عشرة وأربعمائة كان « العيارون يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره ، وعمل الناس الأبواب على الدروب فلم تغن شيئاً »(١) .

وكان الشاطر إذا شاخ وعجز عن العمل ربما تاب فتستخدمه الحكومة فى مساعدتها على كشف السرقات ، وكان فى خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء يطلق عليهم اسم « التوابون » ولكن هؤلاء كانوا فى الغالب يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم(٢) .

وكثيراً ما كان الوزراء والحكام وأصحاب السلطة والنفوذ يقاسمون الشطار والعيارين الأموال، ففى حوادث سنة ست وثلاثين وخمسمائة يذكر ابن الأثير : « . . وفى هذه السنة وصل السلطان إلى بغداد فرأى تبسط أمر العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز إلى الشحنكية فتاب كثير منهم ، ولم ينتفع الناس بذلك لأن ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم »(٣) .

وقد ذكر ابن بطوطة استفحال أمر الشطار والعيارين على عهده « القرن الثامن » وأشار إلى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وهجومهم على مدينة بيهق فملكوها وملكوا غيرها ، فجندوا الجنود وركبوا الخيول ، وجعلوا أحدهم سلطاناً عليهم ، والتجأ إلى هذا السلطان العبيد ، فمن رأى فيه شجاعة أمره وأعطاه مالا وفرساً(٤) .

وكان لهؤلاء الشطار والعيارين عيون على الناس من النساء والرجال يتبعونهم فى الحانات والقصور والصيارف والجوهريين ، فإذا رأوا من قد باع شيئاً تبعوه وأخذوا ما معه(٥) .

رأيهم فى أعمالهم :

الذى يظهر لنا من دراسة حياة هذه الجماعات أن أعمالهم هذه

(١) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٧ .
(٢) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٨ .
(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٢٢ .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٦ .
(٢) المسودى ج ٢ ص ٣٣٥ .
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٤١ .
(٤) ابن بطوطة ج ١ ص ٢٣٥ .
(٥) المنتظم ج ١٠ ص ١٠٥ .

كانت موجهة إلى أصحاب المال والأغنياء الذين يكدسون ثرواتهم ويخزنون أموالهم ، ويتركون العامة فى عوز وفاقة ، لذلك لم يعترضوا لأصحاب البضائع القليلة ولم يعرضوا لامرأة ولا إلى من يستسلم إليهم ، وكانت هذه صفة ابن حمدون الشاطر والبرجمى العيار[1] .

ولم يكن هؤلاء الشطار والعيارون يعدون اللصوصية جريمة وإنما هى صناعة يحللونها لأن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنياء زكاة تلك الأموال ، فقد ادعوا أنهم فقراء فإن أخذوا تلك الأموال كانت لهم مباحاً ، وهذا التعليل يسرده لنا ابن سيّار الكردى ويذكر خبره التنوخى قال : « كنت مسافراً ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردى ، فقطع علينا وكان يزى الأمراء .. فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه فوجدته يروى الشعر ويفهم النحو ، فطمعت فيه وعملت أبياتاً مدحته بها ، فقال : لست أعلم أن هذا من شعرك ، ولكن اعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة وانشدنى بيتاً ، فعملت فى الحال أجازة له ثلاثة أبيات . فقال لى : أى شىء أخذ منك لأرده عليك ؟ فذكرت له ما أخذ منى فرده إلىّ . ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيساً فيه ألف درهم فوهبه لى . فجزيته خيراً ورددته إليه ، فقال لى لِمَ لا تأخذه ؟ فوريت فى كلامى ، قال : أحب أن تصدقنى ، فقلت : وأنا آمن ؟ فقال : نعم ، قلت : لأنك لاتملكه وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة ظلماً فكيف يحل لى أخذه ، فقال لى أما قرأت ما ذكره الجاحظ فى كتاب اللصوص عن بعضهم قال : « إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص فقراء إليها ، فإن أخذوا أموالهم كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة . ثم قال لى : خذ الآن الكيس فأخذته وساق القافلة »[2] .

بطولتهم في الحروب :

كان للشطار والعيارين فى الحروب والفتن المحل الأول والشأن الكبير ، ففى الفتنة بين الأمين والمأمون لما عجزت جنود الأمين عن الدفاع استنجد بالعيارين والشطار فى الدفاع عن بغداد ، فنظمهم نظام الجند على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم المآزر ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبوارى قد قرنت وحشيت بالرمل والحصى ، وساروا للحرب يضربون المأمونية بالقلاع والحصى[1] ، وفى هؤلاء يقول الشاعر :

خرّجت هذه الحروب رجالا ... لا لقحطان ولا لنزار
معشر فى جواشن الحصر بمدو ... ن إلى الحرب كالليوث الضوارى
ليس يدرون ما الفرار إذا الأبطا ... ل عاروا فى القنا للفرار
واحد منهم يشد على ألفـ ... ـين عريان ما له من ازار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـ ... ـنة : خذها من الفتى العيار

ومن ظريف بلائهم فى هذه الفتنة ما ذكره ابن الأثير قال : إن قائداً من أصحاب طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوماً إلى القتال ، فنظر إلى قوم عراة فقال لأصحابه : ما يقاتلنا إلا من ترى ؟ استخفافاً بأمرهم واحتقاراً لهم ، فقيل له : نعم ، هؤلاء هم الآفة ، فقال لهم : أف لكم حين تنهزمون من هؤلاء وأنتم فى السلاح والعدة والقوة وفيكم الشجاعة ، وماعسى يبلغ كيد هؤلاء ولا سلاح معهم ولا جنة تقيهم ... وتقدم إلى بعضهم وكانت فى يده بارية مقيرة وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة فكان الخراسانى كلما رمى بسهم استتر منه العيار فيقع السهم فى باريته أو قريباً منها فيأخذه العيار ويصيح دانق — أى ثمن السهم دانق قد أحرزه — فلم يزل كذلك حتى فنى سهام الخراسانى ... ثم حمل عليه العيار ورماه بحجر من مخلاته فى مقلاع فما أخطأ عينه ، ثم خر وكاد يصرعه ، فانهزم وهو يقول : ما هؤلاء بناس[2] .

وحدث مثل هذا من العيارين والشطار فى حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ إذ حوصر المستعين بالله ببغداد مثل حصار الأمين فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم رئيساً اسمه بينونه[3] .

ومن العيارين رجال خلدهم التاريخ وكتبت حولهم القصص الشعبية مثل الزيبق وقصته مشهورة معروفة تقرأها العامة كما تقرأ قصة أبى زيد الهلالى وقصة عنترة وغيرهما من القصص الشعبية .

(١) التنوخى ج ٢ ص ١٠٨ وابن الأثير ج ٩ ص ١١٥ .
(٢) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٦ .

(١) المسعودى ج ٢ ص ٢١٨ .
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١١١ .
(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٤٤ .